الديالكتيك والأنظمة الإستبدادية

اذا رجعنا الـــى كلمة ديالكتيك وجدناها تعني في كتب الفلسفة القديمة الجدل الكلامي، او البحث المنهجي. فهي فـــي رأي الرواقيين اليونان مترادفة فـــي معناها مع المنطق.

فـــي رأي أرسطو هـــي دروة الرقي المنطقي أو المنطق في أرقـى تجلياته.وفي رأي زينون فنّ المنافسة، وفـــي رأي بعض المحدثين هي كل مجموعة منظمة من الأفكار يتعلق بعضها ببعض تعلقـــا منطقيـــا. وأخيـرا استقر مفهوم الديالكتيك في عصرنا الراهن بأنه طريقة للمعرفة تدرّس وحـــدة وصراع المتضادات فـــي الكون والمجتمع والفكـــر. ولهذا سمّـــي قانـون وحدة وصراع المتضادات القانـــون الأساسي في الديالكتيك وهذا ما كرّسه هيغـل بشكل نهائي ومحسوم وجعل منه الطريق الأصح الـــى المعرفـــة.

ولقد درج المحدثون من أبناء عصرنا الى التمييز بين نظام الفلسفة وبين طريقة المعرفة. فقالوا أن النظـــام الفلسفي إما أن يكون مثاليا كما هـــو عند أفلاطون، وإما أن يكون ماديـا كما هو عند ماركس. وأن طريقـــة المعرفة إما أن تكون طريقة ديالكتيكية تعتبر الكون والإنسانية كلا واحدا متماسكا، الظواهـــر فيه مرتبطة عضويـــا وبعضها شرط للبعض الآخر. والكون والإنسانية في حالة تغييـر وحركـة دائمين وبذلك يصبح التجدد والتطور الـــى ما لا نهايـــة. أو تكـــون الطريقة ميتافيزيكية تعتبـر الكون والإنسانية تراكما عرضيا للظواهر والحوادث أحدها منفصل ومستقل عـــن الآخـــر والكـــون المادي والإنساني فـــي حالـــة سكون والتطور حركة نمو بسيطة لا تؤدي التغيرات الكمية فيه الى تغيرات كيفية.

يقـــول هيغـل أن كل ظاهـــرة طبيعية أو إجتماعية أو فكرية هي وحدة وصراع متضادات تملك خاصتين، سكـون يعبّر عنه بوحدة المتضادات وحركة يعبّر عنها بصراع المتضادات. فالوحدة هي حالة السكون في الظاهرة والحركة هي حالة الصراع في الظاهرة. والسكون والحركة معا يشكلان الظاهـرة. فلا سكـــون بدون حركـــة ولا حركـــة بدون سكـون. ولكن فلاسفة الديالكتيك اختلفوا فـــي تصنيف أهمية الحركـة والسكـــون، فماركس قال أن حركة صراع المتضادات هي الأساس والجوهـــر فـــي أي ظاهـــرة مادية أو اجتماعية أو فكرية فهي حركة مطلقة لا بداية لها ولا نهايـــة. أما السكون الذي هـــو وحـــدة الظاهرة فهو سكون نسبي وليس مطلق. ثم قال أنه لا يمكـــن الفصل بيـن إطلاقية صراع المتضادات ونسبية وحدة المتضادات لأنه في المطلق يوجد نسبي وفي النسبي يوجـــد مطلق.

أما هيغـل فقـــال أن السكون الذي يمثـــل الوحدة فـــي وحدة وصراع المتضادات، والحركة التي تمثـــل صراع المتضادات داخـــل الوحدة كلاهما مطلـــق وهما متوازيان. أي ليست الحركة هي

الأساس والسكون هـو المؤقت فهما وجهان لحقيقة واحدة. فلولا السكون لما كان لأي وجود أو ظاهرة موجودة هويتها الخاصة بها أي بصمة وجودها أو ماهيتها. ولذلك لولا الحركة لما كان هناك أي تغيير وتطور وتحول. والإثنان يجب أن يعملا متوازيين حتى يكـون التغيير والتحول واقعي وعقلاني وإلا كان الموجود غير عقلاني وغير واقعي وفقد ضرورة وجوده. وكثير من الظواهـر الماديـة والإجتماعية والفكريـة موجودة ولكنها غيـر عقلانيـة وغيـر واقعية فقدت ضرورة وجودها. ومـن هـذه الزاويـة بالذات ننفذ الى الأنظمة العربية التي هي بأغلبها ليست موجودة كضرورة لأنها لا تملك فـنّ قيـادة المجتمعات وتطويرها نحـو الأفضـل، ولا تساعد الإنسان على تحقيق إنسانيته ولكن هذه الأنظمة اختارت لنفسها طريقين إما طريق الديكتاتورية السياسية التي تتبرقع ببرقع الإشتراكية العلمية وهي منها براء لأنها أنظمة مخبراتية شمولية لا أثـر فيها للنقد والنقد الذاتي اللذان هما من أهم خصائص الإشتراكية العلمية لتصويب مسيرتها كلما جنحت علـى الطريق المستقيم. ولأن هـذه الأنظمة راكـدة بل متصنمة لا تعترف إلا لفظا بأن الحركة الداخلية هي جوهر وجودها وأن التغيير والتطور هو الناموس الطبيعي لمسيرتها. أو الطريق الثانـي وهـي الديكتاتوريات الدينية التي اسقطت علـى مجتمعاتها أفكارا وتوجيهات فوقيـة غيبية لا تمت الـى الواقع بكل جوانبـه بأي صلة. وبالتالـي تريـد أن تصوغ المجتمعات ملامسة للواقع الداخلي والخارجي. وتلتقي الديكتاتوريات الدينية رغم الفوارق الأيديولوجية مع الديكتاتوريات السياسية بتجميد حركـة المجتمعات الداخلية وتفاعلاتها الخارجية وايقاف مسيرة التطـور والتغييـر عند نقطة معينة وكأن التاريخ قـد توقف عنـد هذه المحطة ولن يبارحها أبدا لأنها كماله المطلق. ولكي تستطيع هذه الأنظمة أن تحقق أهدافها كان لا بـدّ من أن تضع الناس تحت مظلة الخوف والترهيب. فمـن لا يردد تعاليم القائـد ببغاويا هـو خائـن وعميـل ومارق وفوضوي ومهرطق يجب عقابـه لأنه لا يحترم العقل الجمعي الذي تنازل الجميع عن عقولهم الفردية لأجل مجده وكماله المطلقين.

والترهيب والتخويف متعدد الوجوه، فساعة يكون باسم العقل الجمعي للنظام وساعة يكون باسم تعاليم السماء ونظريـة عصمة القائـد الذي لا ينقطع تواصله مع السماء طرفـة عين، والنتيجة واحدة، مصادرة عقـول الناس ومصادرة حرياتهم وإعطاء الإنسان تعريفـا غير التعريف الذي أعطاه إيـاه أرسطو بأنه كائـن عاقـل اجتماعي بالفطرة، ليصبح كائنا مدجنا ببغاويا بالفطـرة، تنازل عـن عقلـه الفردي لمصلحة العقل الجمعي الذي تصوغه الأنظمة على قياس مصالحها، وتنـازل عـن نزعته الإجتماعية بالسعي للعيش فـي مجتمع عادل بعد أن شلت قدرته على بناء مجتمع ديناميكي متطور يسعى الى بلوغ كماله في النمو والرفاهية والمعرفة والإنتاج والعدالة.

وبذلك تكــون هذه الأنظمة التي تسعى دائبـة لتجريـد الإنسان مــن هويته الإنسانية واعادته الى مرتبة الحيوان الأعجم الذي حركته دائما هــي ردّة فعل وليست فعلا. تكون هذه الأنظمة أنظمة موجودة ولكنها غيــر واقعية وغيــر عقلانية لأنها ليست موجودة كضرورة بـل هي قد اسقطت على المجتمع اسقاطا مــن فــوق عندها يصبح زوالها حاجة إنسانية قبل أن يكون حاجة عربية فقط.

كمال يوسف سري الدين